ISSN: 2170-1822,
EISSN: 2600-6189

مجلة الناصرية للدراسات الاجتماعية والتاريخية

مجلد: 14 عدد 1 جوان 2023

ص.ص 281 - 305

العنوان: صورة أبي راس الناصري من خلال رحلته فتح الإله ومنّته في التّحدّث بفضل ربّي ونعمته

صورة أبي راس الناصري من خلال رحلته فتح الإله ومنّته في التحدّث بفضل ربي ونعمته

د بحري نصيرة[1]، أ/ د قادة محمد[2]

[1]sirra2626@gmail.com ،جامعة مستغانم الجزائر

[2]kadamed67@gmail.com ،جامعة مستغانم الجزائر

تاريخ الإرسال: 15/ 07/ 2020 ؛ تاريخ القبول: 20/ 04/ 2023

The image of Abi Ras Al-Nasseri trough his journey "Fath AL lah wa Minatih Fi Atahadoth Bifadhel Rabbi Wa ni'matih"

Abstract:

The study of the image is one of the most pertinent fields, as the latter reflects a variety of space and locations′images well as characters of different types and forms, but the self is considered as a central element of journey in particular the Al moaskari′s journey entitled:"Fath AL Ilah wa Minatih″is a space for the image productivity, because it reflect the image of its holder and his social, political religious and cultural reality during the Ottoman era; that′s why we thought to focus on it. so our research came entitled the image of Abi Ras Al-Nasseri through his journey″. We introduced him, and then we talked about his journey and the method followed therein. We then concluded to reveal the manifestation of Nasiri′s image through it, this image that appears in several forms, which we aim to illustrate in this article.

Keywords: Abi Ras Al-Nasseri; journey ; History ; 18thcentury; Imageology.

مجلة الناصرية للدراسات الاجتماعية والتاريخية
ISSN: 2170-1822, EISSN: 2600-6189
مجلد: 14 عدد 1 جوان 2023
العنوان: صورة أبي راس الناصري من خلال رحلته فتح الإله ومنّته في التّحدّث بفضل ربّي ونعمته
ص.ص 281 - 305

الملخص:

تعدّ دراسة الصّورة من أكثر الميادين اتّصالا بأدب الرّحلات، ذلك أنّ هذه الأخيرة تعكس صورا شتى للأمكنة والفضاءات هذا فضلا عن الشخصيات على اختلاف طبوعها وألوانها، غير أنّ الذّات تعتبر عنصرا محوريا في الرحلات بشكل عام، وفي الرحلات الجزائرية على وجه التحديد، وتعتبر رحلة المعسكري الموسومة بـ﴿ فتح الإله ومنّته في التّحدّث بفضل ربّي ونعمته﴾ فضاء لإنتاجيّة الصّورة، كيف لا وهي تعكس صورة صاحبها وواقعه الاجتماعي والسياسي والديني والثّقافي أثناء العهد العثماني، ولهذا ارتأينا التّركيز عليها فجاء بحثنا موسوما بـ﴿صورة الناصري من خلال رحلته﴾ فعمدنا إلى التّعريف به ، ومن ثمّ الحديث عن رحلته والمنهج المتّبع فيها، لنخلص بعد ذلك إلى الكشف عن تجليّات صورة الناصري من خلالها، هذه الصورة التي تتبدّى في عدّة أشكال وهو ما نهدف لتوضيحه في هذا المقال.

الكلمات المفتاحية: أبو راس الناصري؛ الرحلة؛ التاريخ؛ القرن الثامن عشر؛ الصورائية.

مقدمة:

إنّ المتون التي تركها أبو راس الناصري تشكّل فصلا خصبا للبحث وتحوي كمّا هائلا من المعارف والمعطيات الزاخر بها القرنان الثامن عشر والتاسع عشر الميلاديين، وتعتبر رحلته الموسومة بـ﴿فتح الإله ومنّته في التّحدّث بفضل ربّي ونعمته﴾ واحدة من الرّحلات التي تتجلّى فيها

د ة بحري نصيرة
sirra2626@gmail.com

صورته بوضوح ممّا جعلها ذات قيمة تاريخية، ولعلّ هذا ما دفعنا لتركيز اهتمامنا عليها بغية الكشف عن مكنوناتها ومن هنا جاء بحثنا موسوما بـ﴿ صورة الناصري من خلال رحلته﴾ فمن هو أبو راس الناصري؟ وما مضمون رحلته؟ وكيف تبدّت صورته من خلالها؟ وإلى أيّ مدى استطاعت هذه الرّحلة أن تعكس صورة صاحبها ؟

كلّ هذه التّساؤلات وغيرها تسعى هذه الدراسة للإجابة عنها .

في التعريف بالرّحالة أبي راس المعسكري:

الواقع أنّ دراسة أيّ رحلة لا يمكن أن تتمّ دون الترجمة لصاحبها، ومن هنا ارتأينا أن نقدّم تعريفا موجزا لهذه الشخصية إيمانا منّا بأنّ لكلّ نصّ سياقه التاريخي والثقافي الذي أنتجه وسنستعرض فيما يلي أهم المحطات التاريخية البارزة في حياة الرّحالة أبي راس.

نشأة أبو راسٍ وظروف ميلاده:

إنّ ارتباط حياة الناصري بالفترة العثمانية جعلها تكتسي أهميّة تاريخية كبيرة كيف لا وقد أقرّ بذلك أحد الباحثين في علم التاريخ صراحة كما هو جلي في قوله:﴿لا يمكن أن نكتب فصلا عن التاريخ والتراجم في العهد العثماني دون الترجمة لأبي راس، فقد كان على رأس المؤرخين إنتاجا وإدراكا لأبعاد الدّراسة التاريخية ﴾(أبو القاسم سعد الله، 1985: 390).

ويشير الباحث ذاته إلى أنّه ولد سنة 1165 وتوفي سنة 1238، ومعنى ذلك أنّه قد عاصر أحداثا هامّة في حياة بلاده وفي حياة العالم

الإسلامي قاطبة، ومن ذلك حملة أوريلي وحملة اللورد اكسموث الأوروبيين على الجزائر ، وفتح وهران الثاني، وثورة درقاوة ضدّ العثمانيين أمّا بالنسبة للعالم الإسلامي فلنذكر ظهور الدعوة الوهابية والحملة الفرنسية على مصر وصعود محمد علي، وبداية الإصلاح في الدولة العثمانية، وقد أثّرت هذه الأحداث وغيرها على مزاجه وأحكامه. (أبو القاسم سعد الله، 1985: 391)

والجدير بالذكر أنّ الاسم الكامل لأبي راس هو محمد بن أحمد بن عبد القادر بن محمد بن أحمد بن الناصر الجليلي، المعسكري شريف النسب من سلالة المولى إدريس، وهو يعتبر من أفذاذ العلماء الذين ظهروا بالمغرب الأوسط قبل الاحتلال الفرنسي بقليل وقد نعته علماء الشرق وبشيخ الإسلام، ولد ونشأ في ريف معسكر بالغرب الجزائري وبها تلقى المبادئ العلمية وتولى بها خطتي الفتوى والقضاء ثمّ عزل عنهما عام 1216 بسبب وشاية بعض الحسّاد، فضاق حاله واضطرّ إلى الهجرة فدخل المغرب الأقصى رفقة أخ له ثمّ توجّه إلى تونس فمصر والشام والحرمين، وناظر علماء هذه الأقطار فاعترفوا له بالفضل والبراعة ثمّ رجع إلى مسقط رأسه معسكر وبها كانت وفاته.(شاوش محمد ، 2011: 107)

فيما يكتفي مؤرخ آخر في سياق الترجمة لأبي راس بقوله:﴿ رأيت أن أسهم في ندوة الجبرتي ببحث عن مؤرّخ جزائري معاصر له وهو الشيخ أبو راس الناصر فكلاهما عاش في النصف الثاني من القرن

ISSN: 2170-1822,
EISSN: 2600-6189
مجلة الناصرية للدراسات الاجتماعية والتاريخية
مجلد: 14 عدد 1 جوان 2023
العنوان: صورة أبي راس الناصري من خلال رحلته فتح الإله ومنّته في التّحدّث بفضل ربّي ونعمته
ص.ص 281 - 305

الثامن عشر والربع الأول من القرن التاسع عشر الميلادي﴾ (أبو القاسم سعد الله، 2005: 83) حيث نجده يقارن بين مؤلفات كلّ منهما لما وجده من شبه كبير فيسمي أبو راس أحد كتبه مثلا بـ﴿عجائب الأسفار ولطائف الأخبار﴾ ويسمي الجبرتي مؤلّفه بـ ﴿في عجائب الآثار في التراجم والأخبار﴾، ونستشفّ من هذه الموازنة أنّ أبا راس كان على اتصال بغيره من العلماء.

وتشير الباحثة سميرة أنساعد في دراسة لها إلى أنّ﴿ أبا راس عاش فقيرا يتيما إذ توفيت أمّه ثمّ أبوه فكفله بعدهما أخوه الأكبر الذي سافر به إلى معسكر وهناك حفظ القرآن الكريم وتعلّم الأحكام ثمّ الفقه واشتغل بالتدريس لطلبة مازونة، عرف أبو راس الرحلة منذ الصغر وتنقّل بين عدّة مدن في الغرب الجزائري، وأنجز مدة حياته رحلتين إلى الحجاز لأداء الحج، كما زار خلال الرّحلتين الشام وفلسطين، وكان بدء سفره إلى المشرق سنة 1204هـ وذاع صيت أبي راس في هذه البلدان بعلمه الواسع وكثرة حفظه حتى لقّب في مصر بشيخ الإسلام، وصار عند المصريين شهيرا بعد امتحانهم له﴾ (أنساعد سميرة، الرّحلة إلى المشرق في الأدب الجزائري، 2009 : 70).

ويقتصر صاحب كتاب أبو راس الناصري حياته وتصوفه على ذكر تعريف مختصر له ورد فيه ما يلي﴿إنّ ناصر أبو راس المعسكري يعدّ مؤرّخا وحافظا له مشاركة في الفقه والأدب والحديث ﴾ (ابن حنفية

عبد القادر، 2004: 38) ثمّ يذكر بعدها بعضا من مؤلفاته دونما تفصيل في حياة هذا الرجل .

ولئن تعدّدت الترجمات الخاصة بأبي راس إلاّ أنّ رحلته تبقى مصدرا يؤرّخ لحياته ذلك أن صاحبها أورد فيها ترجمة ذاتية لنفسه وهو ما يمكن للدارس المطلع عليها ملاحظته في مستهلّ الرّحلة حيث خصّص لذلك بابًا وسمه بعنوان﴿في ابتداء أمري﴾ وقد عرض فيه كثيرا من تفاصيل حياته.

ومهما يكن من أمر فإنّ ما ذكرناه عن حياة أبي راس لا يعدّ إلاّ غيضا من فيض فحياته مليئة بالتجارب والأحداث، ولا يمكن أن نختصرها كلّها في هذه الصفحات القلائل.

مؤلّفاته:

الواقع أنّ أبا راس كان يساجل العلماء ويناظرهم ويجيب على أسئلتهم فلا ريب إذن إذا تعدّدت مؤلّفاته وتنوّعت وهو الذي عُرِف بشغفه بالعلم والعلماء حتى قيل بأنّ ﴿تآليفه تكاد تزيد على عدد أيّامه﴾(أبو القاسم سعد الله، 2005: 91)، حيث كتب في معظم علوم عصره مقتديا في ذلك بالسيوطي حيث يقول:﴿ إنما عددت تآليفي وجملة تصانيفي اقتداء بالإمام السيوطي ...وما أعلم أحدا أكثر التّآليف بعده غيري ...وما عددت تآليفي ...إلاّ تحدّثا بنعم الله تعالى لا فخرا﴾(أبو راس الناصر، 1990: 182). بيد أنّ ما يهمنا هنا هو مؤلفات المعسكري التاريخية حيث ذكر لنا بعضا منها في رحلته وبالتحديد في الباب الخامس

منها والذي عنونه بـ« العسجد والإبريز في عدّة ما ألّفت بين بسيطٍ ووسيطٍ ووجيز» والواقع أنّه ألّف في ثمانية عشر علما وفنا ومادة فمثلا في علم التاريخ وحده ألّف أربعا وثلاثين مخطوطة منها:

- زهرة الشماريخ في علم التاريخ.
- الوسائل إلى معرفة القبائل.
- الحلل السندسية في شأن وهران والجزيرة الأندلسية.
- حلتي ونحلتي في تعداد رحلتي.
- ذيل القرطاس في ملوك بني وطاس.
- غريب الأخبار عما كان بوهران والأندلس للمسلمين مع الكفار.
- درء الشقاوة في حروب الترك ودرقاوة.
- الخبر المعلوم في كلّ من اخترع نوعا من أنواع العلوم.
- القصص الفتلتة في ذكر البربر وزناتة.
- أقوال التأسيس عمّا وقع وسيقع مع الفرنسيس.

تلكم هي بعض من الكتب التي ذكرناها على سبيل التمثيل فقط لان الحديث عن مؤلفاته يطول ويطول وقد يستغرق منا صفحات طوال إلاّ أنّ ما يمكن قوله أنّ أبا راس يعتبر موسوعة زمانه فلم يترك مجالا إلاّ وألّف فيه وهذا إن دلّ على شيء فإنّما يدلّ على سعة ثقافته وعلى غنى عصره وعلى كثرة اطلاعه.

في الحديث عن الرحلة وأهميتها والمنهج المتّبع فيها:

إنّ المطلع على رحلة المعسكري الموسومة بفتح الإله ومنته بفضل ربي ونعمته يلفي أنّها رحلة مخطوطة قام بتحقيقها وضبطها والتعليق عليها محمد بن عبد الكريم الجزائري وقدّم لها الباحث أبو القاسم سعد الله وهي رحلة تحتوي على مائة وخمسة وثمانين صفحة مقسمة على خمسة أبواب حيث يقول في مستهلّها:﴿ وإنّي عزمت على تأليفٍ عظيم الجدوى، بليغ الفحوى، يحتوي على أبواب وأسئلة فتوى﴾(أبو راس الناصر، 1990: 15) .

الباب الأوّل: وسمه بـ﴿في ابتداء أمري﴾.وقد خصّه بالحديث عن مولده ونسبه وبعض مراحل حياته كما أشرنا إلى ذلك سلفا.

الباب الثّاني: في عدّة أشياخي، وقد اختار له عنوان﴿في ذكر أشياخي النافضين عنّي قشب أوساخي شريعة وحقيقة وقرآنا وطريقة . ولو تأمل الباحث في هذا الباب لوجد فيه ذكرا لشيوخه مبتدئا بوالده ومنتهيا بالشيخ السنوسي، وقد عدّ الناصري ما يقارب خمسين شيخا جلس إليهم وتعامل معهم وأخذ عنهم مختلف علوم ذلك العصر من فقه وتصوّف ولغة.

الباب الثّالث: في رحلتي للمشرق والمغرب وغيرها ولقاء العلماء الأعلام وما جرى لي معهم من المراجعة والكلام، وهنا يشير إلى أنّ رحلته التي كانت اقتداء بالجهابذة النّحارير والأسانيد الجماهير مثل رحلات ابن رشيد السبتي والعياشي وغيرهم .

الباب الرابع: في الأسئلة وما يتعلّق بها، ويتناول فيه المناظرات التي أجراها مع من لقيهم من العلماء.

الباب الخامس: يسميه العسجد والإبريز في عدّة ما ألّفت بين بسيط ووسيط ووجيز، وفيه يذكر تآليفه في مختلف العلوم والفنون.

والجدير بالذّكر أنّ رحلة أبي راس الناصري هي في حقيقة أمرها تسجيل لرحلتين قام بهما لآداء فريضة الحج الأولى سنة 1204والثانية سنة 1226 .

وتجدر الإشارة إلى أنّ أبا راس قد سلك في رحلته هذه طريق الحج العادي بيد أنّه ذهب بحرا خلافا لمواطنه الورثيلاني ومن مصر ركب إلى ينبع، ومنها إلى مكة المكرمة فالمدينة المنورة، ويبدو أنّ هذا طريقه في كلتا الحجّتين، وقد سجل في حجّته الثانية(1226-1227) أنّه التقى في مكة بالعلماء الوهّابيين دون أن يذكر واحدا منهم بالاسم وقال أنّه تناظر معهم وعقّب على ذلك بقوله﴿ ظني أنّهم حنابلة المذهب﴾(أبو راس الناصر، 1990: 119) ثمّ أضاف قوله علمت أنّهم خارجون عن المذاهب الأربعة في الفروع وأمّا العقائد فهم على ما عليه الإمام أحمد كما أنّه التقى بعلماء المدينة وسجل أنّه سئل في مكّة عن أصل كلّ علم وسبب تدوينه.

ولئن امتاز أبوراس بمنهجه الدقيق في تقسيم مادة كتابه فإنّ﴿لغة رحلته امتازت هي الأخرى بالسهولة والوضوح وهي لغة مطابقة لأسلوب عصره فهي تجمع بين محتوى التاريخ ومظهر الأدب في وقت

واحد، إذ تمتزج فيها الرّواية بالنقل وتصطبغ الحقائق التاريخية بالعواطف﴾(أبو راس الناصري، 2016: 15) والمشاعر.

وإذا كان الزّمن عنصرا ضروريا في أي رحلة فإنّ ما يؤخذ على أبي راس هو إهماله لهذا العنصر فيها ، فهو لم يذكر تواريخ المدن التي زارها كما فعل الرحّالة الآخرين كابن حمادوش والورثيلاني مثلا، فهو لم يحدّد المسار والطريق الذي سلكه في رحلته، باستثناء قوله بعد حديثه عن تونس﴿ وركبت البحر إلى مصر﴾(أبو راس الناصر، 1990، ص110).

والحقّ أنّ رحلة الناصري تكاد تختلف عن باقي الرحلات الحجازية الجزائرية فرغم كونها تتناول موضوع الرحلة لغرض الحج إلاّ أنّها تظهر علمية أكثر منها دينية ذلك أننا نجده قد أسهب الحديث فيها عن علماء عصره والعلوم التي برعوا فيها، كما أنّ التّوق الروحي للحج يبدو خافتًا في الرّحلة كما غابت في الرّحلة تلك المشاعر المتأجّجة والأحاسيس الفيّاضة للقاء بيت الله بل تظهر الروح المجدّة الباحثة عن المزيد من المعارف بوضوح، فالمؤلّف اهتمّ بالعلم والعلماء في رحلته في المقام الأوّل فكان طلب العلم وملاقاة الشيوخ أوّل ما يقوم به كلّما دخل مدينة ما، حيث يسهب في ذكر علمائها ووصف ملاقاة الشيوخ والعلوم والمسائل التي سمعها منهم ، إلاّ عند ذكره مدينة العريش التي اكتفى في وصفها بقوله﴿فلم أجد بها عالما آنس إليه ويكون التّعويل عليه﴾ (أبو راس الناصر، 1990: 120).

ورغم أنّ ﴿الرحلة بدت على مستوى مقبول عموما في قالب سردي أقرب إلى التقرير في معظم الفقرات﴾ (بن قينة عمر، 1995: 109) فإنّه لمن الأمانة العلمية أن نشير إلى أنّها حفلت بكثير من الأخطاء النحوية والاستطراد، ففي الصفحة السادسة والتسعين يتحدّث عن مطالعاته على مدينة قسنطينة قبل الشروع في مرحلتها، وبالصفحة الثامنة والتسعين، وبعد الشروع في الحديث عنها يستطرد للحديث عن مدينة وهران:﴿ كنت مرة قصدت وهران وافدا على حضرة من ناب في مدحه لسان الحال عن لسان المقال...السيد مصطفى محمد باي بن عثمان أخلص الله جهاده ﴾ (أبو راس الناصر، 1990: 119) كما يستطرد للحديث عن مدينة فاس في المغرب الأقصى فيصفها بقوله:﴿ورحلت إلى مدينة فاس محلّ العلم والإيناس والتقريب والتبعيد لأناس، وهي قبة الإسلام والسلم والاستلام المقام الأعلى والمثابة الفضلى، فهي أم قرى المغرب الوافرة وخزائن المزائر والشهرة الساحرة، والأنباء المسافرة، ذات الأرجاء الدانية والقاصية، والأطواد الراسخة الراسية والمباني الباهية، والأزهار الزاهية والمحاسن الشاهية﴾(أبو راس الناصر، 1990: 100).

ويمكن لنا أن نرجع الاستطرادات الواردة في رحلته إلى كونه كتبها بعد سبع سنوات من حدوثها، فقد تتراجع من الذاكرة أشياء أو تنسحب، وتستدرج المناسبة أخرى، أو تتداخل عناصرها من باب توارد الخواطر والذكريات والمشاعر.

لكنّ الكاتب في كلّ ذلك يكتب مستمدّا من تجربته وخبرته، ولا ينقل من مصادر أو مراجع إلاّ استطرادا نادرا .

ولو تأمل القارئ أسلوب الناصري لوجد أنّه ينحو نحو الدقة العلمية خاصّة إذا ما تعلّق الأمر بثبت الأسماء والمناسبات والأماكن، بيد أنّ ذلك لا ينفي تحييد الأسلوب الأدبي هذا الأخير الذي يطلّ علينا في فقرات مختلفة عبر أجزاء الرحلة كما نرى في مثل وصفه مدينة فاس بأناقتها وجمالها. ولعلّ هذا ما يؤكده محقّقها في قوله:﴿إنّ كتاب فتح الإله ومنّته ليعدّ في مقدّمة كتب السير المرضية والتراجم الشخصية التي تمتاز بالصراحة والتدقيق، زيادة على ما يحتوي هذا الكتاب من العلوم المفيدة والشّجاعة الأدبيّة الفريدة ...ولولا هذا الكتاب لما عرفنا من حياة صاحبه العلمية والأدبيّة إلاّ النّزر القليل، ولولا هذا الكتاب لما اطّلعنا على حياة الطلبة وعاداتهم بالمغرب الأوسط، ولولاه كذلك لما اطّلعنا على المناظرات العلمية وبالأخصّ الفقهية التي كانت تدور بين المؤلف وبين علماء المشرق والمغرب﴾(أبو راس الناصر، 1990: 11).

وبعد فإنّ هذه الرحلة تبقى شاهدا حيا عن أوضاع مختلفة وعن طبيعة العلاقات بين أبناء الأمة العربية وفي مقدّمتهم علماؤها بتوادهم وتآزرهم وشغفهم العلمي وتنافسهم الشريف فيه، وبما يشغلهم من اهتمامات ثقافية عامّة بطبيعتها وأسلوبها ولغتها التي تعكس بوضوح الثقافة السائدة في القرن الثامن عشر.

مجلة الناصرية للدراسات الاجتماعية والتاريخية
ISSN: 2170-1822, EISSN: 2600-6189
مجلد: 14 عدد 1 جوان 2023
العنوان: صورة أبي راس الناصري من خلال رحلته فتح الإله ومنّته في التّحدّث بفضل ربّي ونعمته
ص.ص 281 - 305

صورة أبي راس الناصري من خلال رحلته:

حين نشرع في تلمّس صورة الإنسان في الرحلة الجزائرية عموما وفي رحلة فتح الإله على وجه التّحديد نجد فيها صورة رجل الثّقافة وصورة رجل الدّين وصورة طالب العلم المتفوّق هذا فضلا عن صورة رجل السياسة غير أنّ الشخصية العامة او شخصية الرّحالة تكاد تطغى على الرحلة كلّها .

صورة رجل الثّقافة:

لو تأمّل القارئ رحلة المعسكري لوجد بأنّها تصوّره رجلا موسوعي الثّقافة واسع الاطلاع ولعلّ هذا ما جعل علماء تونس وفاس والقاهرة يلقبونه بالحافظ لتمكّنه متى شاء من استحضار مسائله...كأن العلوم كتبت بين عينيه وهو هو ما أشار إليه أبو راس ذاته في قوله:﴿واجتمعت بعلماء مصر بالجامع الأعظم وتناظرنا وتذاكرنا في مسائل جمّة، ثمّ قالوا لي: من لقّب بالحافظ لابدّ أن يختّص بشيء دون غيره، وأنت ماذا تحفظ ؟ قلت : أحفظ كذا وكذا من سائر العلوم، قالوا: لدينا كثيرا من الناس يحفظ مثلك وأكثر قلت: أحفظ أحكام القرآن كلّها وأفهمها قالوا: عندنا كثير من يحفظ حفظا وفهما قلت: أحفظ ألفية ابن مالك ومنظوم البيان وما من باب إلاّ أفهمها ، وفصل إلاّ أعرف كم عمه من بيت قالوا: هذا لم نر من يحصيه ولا سمعنا به ونحن بمدينة العلم الحاوية لكلّ أمر غريب﴾.(الناصري، أبو راس،2002،ص35).

د ة بحري نصيرة
sirra2626@gmail.com

مجلة الناصرية للدراسات الاجتماعية والتاريخية
ISSN: 2170-1822, EISSN: 2600-6189
مجلد: 14 عدد 1 جوان 2023
العنوان: صورة أبي راس الناصري من خلال رحلته فتح الإله ومنّته في التّحدّث بفضل ربّي ونعمته
ص.ص 281 - 305

ومن هذا المنطلق يبدو أنّ الناصري كان يأخذ من كلّ علم بطرف فلم تعجزه أسئلة مناظريه في مختلف المسائل والقضايا التي طرحت في عصره وهذا إن دلّ على شيء فإنّما يدلّ على سعة ثقافته، ولعلّ ما يؤكّد كلامنا السابق ما ذهب إليه محمد بن علي السنوسي حيث ذكره في معرض حديثه عن شيوخه فقال:﴿ومنهم شيخنا وشيخ مشايخنا الهمام الحافظ الإمام سيدي محمد أبو راس المعسكري البلد – رحمه الله – كنت أتردّد عليه كثيرا، وأستفيد منه استفادة عظيمة لتمام حفظه وإتقانه لكلّ فنّ، حافظ لمذاهب الأئمّة الأربعة، جواب كلّ ما سئل عنه بين شفتيه، وغالب من أخذ العلم من أهل ناحيته أخذ عنه﴾(المستغانمي، عبد القادر، 1996، ص97).

ولعلّ ما ورد في ثنايا هذه الرحلة لا يشير إلى ثقافة المعسكري فحسب بل يعكس أيضا ثقافة عصره وأبناء زمانه الذين يظهرون شغوفين بطلب العلم توّاقين لأخذه، ولعلّ المناظرات والمساجلات التي دارت بينهم أكبر دليل على ذلك.

صورة طالب العلم المتفوّق :

لقد بدا أبو راس من خلال رحلته شغوفا بطلب العلم متفوّقا على أبناء زمانه رغم صغر سنّه تحدوه في ذلك الرغبة في السمو والبروز وهو ما نستشفّه من قوله ﴿فلقيت على صغري مشقّة المشي لكن ذلك شأن أهل السفر للعلم﴾(الناصري، أبو راس، 2002،ص20) .

د ة بحري نصيرة
sirra2626@gmail.com

كما يظهر في صورة البطل الذي يتجاوز المعاناة ويتحدّى الظروف ويقطع المفاوز بغية تحصيل العلم حيث أنّ رغبته في التّفوّق والتّجاوز ساهمت في دفع حياته نحو الاعتلاء والتعلّم فقد ذكر في رحلته أنّه كان يشدّ الرّحال إلى كلّ مكان يعرف أنّ به عالما يمكنه أن يأخذ عنه شيئا ذا فائدة كما كانت لقاءاته مع العلماء غنيّة بالاستفسارات والنّقاش والحوار وكان أبو راس دائما هو صاحب الرّأي وهو الذي يقنع محاوريه، كما كان يملك عزيمة فولاذية وذاكرة قويّة جدّا يمكنها أن تحفظ ما يقصده لها وفي أقلّ وقت ممكن. وهو ما استقيناه من قوله:﴿ ولّما ذهبت من الغد للدّرس وجلست على الكرسي قال لي طالب من الحلقة اسمه السيد عبد القادر بن سليمان : إنّي نمت البارحة فإذا بك تدرس الطلبة الفاعل فقلت: وإنّي ان شاء الله لفَاعِلٌ، فتعلّقت بحفظي (ألفية ابن مالك) وسردها لي بعض طلبتي ففتح الله عليّ فيها، حتى جعلت على شرح الشيخ المكودي حاشيتين صغرى وكبرى. ولما ظهرت بي علامات النّفع للطّلبة تنافس الأشياخ في أخذي لتدريس أولادهم فأثرت شيخنا الشيخ عبد القادر بن عبد الله المشرفي، فذهبت لـ﴿ قيطنة﴾ وقد اجتمعت جموع من الطلبة، فقرأت لهم الجزء الأوّل أربع مرّات والثاني كذلك، فتعجّب الشّيخ!وبُهِتَ! وقال ﴿لباي﴾: إنّما اخترته على من هو أكبر منه من تلامذتي، لأنّ فيه النّفع والقريحة. وصار الشيخ يعظّمني على صغري وأعطاني القمح والشّعير والدّراهم

ISSN: 2170-1822,
EISSN: 2600-6189
مجلة الناصرية للدراسات الاجتماعية والتاريخية
مجلد: 14 عدد 1 جوان 2023
ص.ص 281 - 305
العنوان: صورة أبي راس الناصري من خلال رحلته فتح الإله ومنّته في التّحدّث بفضل ربّي ونعمته

والسمن والزّيت والكباش. فجزاه الله خيرا ﴾.(الناصري، أبو راس، 2002، ص23).

فالقارئ لهذا المقطع من الرحلة يدرك أنّ حرص الناصري على طلب العلم ورغبته فيه شكلاّ لديه حاجزا عبر به كلّ الظروف ما جعل منه رجلا غير عاديّ، رجلا صقلته التّجارب ودفعته دفعا للوصول إلى كلّ ما تبتغيه نفسه وترغبه وتلك هي ميزة قلّما نجدها عند غيره.

والمتتبّع لرحلة الناصري يلاحظ بلا شكّ أنّ الشّخصية المركزية أي شخصية الرّحالة استعملت في السرد كما في الحوار، ضمير المتكلّم سواء بصيغة المفرد أو بصيغة الجمع رغبة منها في أن ترسم صورة تبرز من خلالها تميّزها وتفوّقها الذاتي، وقد كان استعمال هذا الضّمير استعمالا مفرطا، إلى الحدّ الذي بدت فيه كأنّها تعاني من عقدة التّميّز، والانبهار بالذات والإعجاب بها.

وعلى مدى محطات الرحلة وصفحاتها لم نقف ولا مرّة على موقف لم تكن فيه الشخصية المركزية متفوّقة، وصاحبة السّبق والفضل العلمي على الغير الذي يصوّره في كلّ الأحوال في موقف الطالب المعجب والمنبهر بقوّة شخصيته وسَعة ثقافته وتنوّع معارفه، ويشهد على ذلك تكرار نمط محدد من الجمل في تعابيره منها على سبيل المثال أظهرني الله عليهم، لقّبوني بالحافظ أصدقهم الله في ذلك، فاعترفوا

مجلة الناصرية للدراسات الاجتماعية والتاريخية
ISSN: 2170-1822,
EISSN: 2600-6189
مجلد: 14 عدد 1 جوان 2023
العنوان: صورة أبي راس الناصري من خلال رحلته فتح الإله ومنّته في التّحدّث بفضل ربّي ونعمته
ص.ص 281 - 305

بفضلي وصحة قولي، وقد أظهرني الله عليهم في كلّ ذلك وما إلى ذلك من العبارات الواردة في ثنايا الرّحلة.

ولئن شكّلت عقدة التّميّز جانبا سلبيا في حياة المعسكري عند بعض الباحثين كما هو الحال عند بشير بويجرة في كتابه الموسوم بـ﴿الأنا، الآخر ورهانات الهوية في المنظومة الأدبيّة الجزائرية، فإنّنا نرى فيها كثيرا من الإيجابيّة فلولا هذه الغريزة أي غريزة حبّ التّفوّق لما وصل النّاصري إلى ما وصل إليه، ولما تمكّنّا من رسم صورة له .

صورة رجل الدين:

إنّ المطّلع على رحلة الناصري يجد بأنّها تصوّره في ثوب رجل الدين الحافظ لكتاب الله وللحديث والفقه والمدّرس لهما في الآن ذاته فقد ثبت عنه من خلال رحلته أنّه مطّلع على الفقه الاسلامي وعارف بمسائله وهو ما لمسناه في قوله﴿...ولمّا أتقنت القرآن بأحكامه – مع الأنصاص التي للشّيخ ابن آزقاق والشيخ الطاهر بن عمرون المغراوي وغيرهما انتقلت لقراءة الفقه، فقرأت على فقهاء﴿أم عسكر﴾..ثمّ سافرت أوّل صومي إلى ﴿مازونة﴾..فلقيت على صغري مشقّة المشي، لكن ذلك شأن أهل السفر للعلم... وقد مررت بطريقي بالشّيخ...فسألني عن وجهتي...فقلت له ذاهب لـ:مازونة﴾ قال:لِمَ؟ قلت: لقراءة الفقه، فقال: والقرآن؟ فقلت له: نعرفه بأحكامه وأنصاصه وما يتعلّق به، ولقد انتفع بي كثير من الطلبة في الأحكام ودرست لهم، فامتلأ رضي الله عنه سرورا وعجبا ومحبّة ورغبا..﴾.

د ة بحري نصيرة
sirra2626@gmail.com

(الناصري، أبو راس، 2002، ص20).

كما يبدو في صورة الرجل الحريص على آداء واجباته الدينية وهو ما تجلى في حديثه عن الصوم والحجّ والصلاة وغيرها من الفرائض وقد أثبتت نقاشاته الفقهية هذا في كثير من الأحيان فهاهو يتحدّث عن أدائه لفريضة الحجّ مثلا فيقول:﴿ ولمّا ذهبت إلى الحجّ سنة ست وعشرين لقيت علماء الوهابية الشيخ علي تاسعهم فتناظرنا في صلاة القصروقراءة دلائل الخيرات والتسبيح بالسبحة وهدم مشاهير الأولياء وظني أنّهم حنابلة المذهب﴾(الناصري، أبو راس، 2002،ص64).

ويظهر الناصري في ثوب الإمام المفتي في أحايين أخرى وهو ما لمسناه في مناقشاته لبعض القضايا الاجتماعية مع علماء الجامع الأعظم ونخصّ بالذّكر موقفه من مسألة شرب القهوة والدخان، حيث يقول: اختلفت فيه النّاس فمنهم مُتَغَالٍ في الحلّ يرى ذلك قربة ومنهم متغال في التّحريم يراه كالخمر والحقّ أنّه في ذاته لا إسكار فيه وإنّما فيه تنشيط للنّفس ويحصل من مداومته ضررة تؤثّر في البدن عند تركه كاعتياد أكل اللّحم بالزّعفران﴾.(الناصري، أبو راس، 2002، ص159).

غير أنّ أبا راس لا يجد نصّا دينيا يحرّم شرب القهوة لكنّه يدعو النّاس إلى الإعراض عنها وتجنّبها إلاّ لضرورة فيقول:﴿وقد كثرت هذا الأيّام ويتعيّن على العاقل اجتنابها لعوارض فيها أمّا الدّخان فشمّه وسفّه ...مندرج ضمن المفسدات للعقول وفيه إضاعة مال لهذا ينصح

بتركه وإن غاب النّص الدّيني لتحريمه، ويستدلّ لذلك بقول جمهور الفقهاء مثل أحمد المقري صاحب نفح الطيب الذي قال فيه ﴿لا نص عندي فيها صريح...﴾ والشيخ أحمد بابا التّمبكتي صاحب الدّيباج﴿يباح فيها القليل﴾ وقال ابن عسكر صاحب الدّوح النّاشر﴿إنّ النّبات كلّه مباح إلاّ ما يغطي العقل﴾ والشيخ عبد القادر الفاسي النسابة الشهير والذي ينبغي اعتماده ﴿ تحريم الدخان لاعتراف كثير أنّه يحدث تفتيرا ويشارك الخمر في نشوته ويرخي الأطراف ويوهنها﴾ (الناصري، أبو راس، 2002،ص 160-161).

ومن الفتاوى الواردة في الرحلة أيضا ما تعلّق بجواب المعسكري عن سؤال لجماعة من الطلبة وهو ما سرده في قوله:﴿دخل عليّ جماعة من الطلبة، فقالوا: جاهل منّا رغم أنّ الإمام إذا صلّى بالقوم ناسيا للحدث، ولم يعلم المأمومون بحدثه، ثمّ علم ذلك بعد الفراغ من الصّلاة تصحّ؟، فقلت: الإمام يعيد أبدا والمأمومون لا إعادة عليهم أصلا، قالوا: وما دليلك؟ قلت: قول المنصف(أي مصنّف الشّيخ خليل المالكي):﴿ومحدثا إن تعمّد أو علم مؤتمه﴾، فهاتان صورتان تفسد فيهما صلاة المأمومين، وأولى الإمام، ومفهومه صورة واحدة وهي إذا لم يتعمّد الحدث، والحال أنّ المؤتمّ لم يعلم، فتصحّ للمؤتمّ، فطالعوا الشيخ الخراشي وغيره، فوجدوا ذلك كما قلتُ، فأكرموني غاية الإكرام﴾(الناصري، أبو راس، 2002، ص162).

د ة بحري نصيرة
sirra2626@gmail.com

ونلفت النظر إلى أنّ الغالب في أجوبة أبي راس اقتصارها على مذهبين فقهيين ألا وهما المذهب المالكي والمذهب الحنفي، وذلك بحكم أنّ المذهب المالكي هو السائد في دول المغرب العربي، وأمّا المذهب الحنفي فهو المذهب الرسمي للدولة العثمانية، لذلك نجده يستدلّ بفتاوى مفتي الدولة العثمانية وعالم اسطنبول الشيخ أبي السعود، فضلا عن استدلاله بعلماء آخرين.

ويبدو أنّنا لم نكن السباقين في تصوّرنا للناصري في ثوب رجل الدين المتفقّه فيه فها هو الشيخ الحفناوي يصفه بقوله :﴿كان رحمه الله ورضي عنه (يقصد الناصري) إماما في المعقول والمنقول، وإليه يرجع في الفروع والأصول، فهو ليث الدّين وأوثق أساس وأضوأ نبراس، الإمام القدوة المتفنّن ﴾ (الحفناوي، تعريف الخلف برجال السلف، 1991، ص167).

وبعد فتلك هي صورة الناصري كما تبدّت لنا من الناحية الدينية وفيما يلي تصوّر آخر له.

صورة رجل السياسة:

لئن كان طلب العلم وحبّ التفوّق سمتين بارزتين في شخصية الناصري فإنّ هناك سمات أخرى كشفت عنها مناقشاته لبعض القضايا السياسية التي صاحبت عصره، فقد ذكر المعسكري في رحلته موقفه من حرب درقاوة التي تحدّث عنها واصفا إيّاها بالفتنة كما ساند نظام الدايات على غرار علماء عصره ونوّه بخصال بعض البايات

أمثال محمد الكبير فاتح وهران والباي مصطفى من قبله الذي كان يرعى شؤون العلم، والواقع أنّ الناصري يلتزم بوحدة المغرب الأوسط إقليما وسلطة إذ يؤكّد على استقلال نظام الدايات عن الأستانة ويدافع عن حدوده مثلما حدث له مع السلطان المغربي المولى سليمان حين زار فاسا .﴿محل العلم والإيناس ..ثمّ حضرت مجلس ذي الخلافة ..السلطان الجليل..مولانا سليمان..وسألني يوما..عن حد المغرب الأقصى فقلت:قال ابن خلدون: حدة وجدة﴾ وجدد ذلك الحدّ أوّل القرن الثاني عشر مع جدك السلطان مولاي إسماعيل وأتراك الجزائر..فقال لي :إني رأيت في حدّة تافنة فسكتت خشية منه﴾(الناصري، أبو راس، 2002، ص107) .

وقد ظهر أبوراس في ثوب رجل يتميّز بحسّ إسلامي حادّ فنجده يتحسّر على ضياع الأندلس حين يكتب عن مدنها وعلمائها وملوكها فقد زار شيخ الأزهر في القاهرة فقال هذا الأخير﴿الحمد للّه الذي عوّضنا عنها(الأندلس) بالقسطنطينية فأجابه أبو راس﴿أحمد الله﴾ لكن علّق عليه قائلا﴿إن لم تكن إبلا فماعز﴾ (الناصري، أبو راس، 2002، ص 108) .

ويبدي حماسا حين يكتب عن فتح وهران سنة 1792 وتحريرها من أيدي الإسبان ويشيد بمقاومة علماء الأزهر وعامة القاهرة للحملة الفرنسية التي قادها نابليون إلى مصر سنة 1798 وينوّه بمقاومة

الجزائريين للتحرشات الأوروبية على قاعدة الملك ﴿الجزائر المحروسة﴾.

إنّ اشتغال الناصري بالقضاء ومناقشاته لبعض القضايا السياسية أيضا هو الذي قادنا إلى تصوّره في ثوب رجل السياسة، فقد عثرنا في رحلته على بعض العبارات التي تؤكد امتهانه لمهنة القضاء كقوله مثلا في سياق حديثه عن قدومه إلى مدينة أم عسكر كما ارتأى أن يسمّيها : وقدمت إلى أمّ عسكر فقرأت لهم في عامي الأوّل والثّاني ثمّ أنّي تقلّدت قضاء تلك الجهة على يد شيخنا محمد بن مولاي علي قاضي أم عسكر﴾ (الناصري، أبو راس، 2002، ص22) .

ويتعلّق الجواب بمسألة الفصل بين المتقاضيين، فقد تقدم بتونس للقاضي محمد بن المحجوب خصمان في حضانة فقال لمن أراد نزعها من الحضانة: أثبت عليها أنّها غير مأمونة، فقال الحافظ أبو راس: إنّ الحاضنة إذا نوزعت في سلب شرط، وادّعت أنّها متّصفة به، هي تثبته، لقول خليل: ﴿واثبتها﴾، فرجع القاضي إلى قوله﴿(الناصري، أبو راس، 2002، ص96).

ويبدو أنّ تقلّد الناصري لمنصب القضاء لم يكن إلاّ بعد دراسته والتمكن فيه وهو ما يؤكّده في قوله:﴿وحضرت مجلس السيّد محمد بن عبد القادر القاضي، المسهل به التّقاضي المؤيد به المتقاضي، أجل قضاة مازونة المستقبل منهم والماضي، فقرأت عليه نفائس كانت لبّي كالنّقش

في صورة من عاج في الدّمى، من باب القضاء والشّهادات وأحكام الدّماء﴾(الناصري، أبو راس، 2002، ص51).

تلكم إذا هي صورة الناصري في علاقتها بالسياسة والقضاء وإن كنا نرى بأنّ مدونته فتح الإله قد كشفت لنا عن صور عديدة لصاحبها.

والمتأمل في فتح الإله أيضا يتبدى له الناصري رجلا بسيطا عصاميا عاش حياة صعبة وظروفا مأساوية فقد ورد في رحلته ﴿أنّه عانى الفقر والجوع واليتم ومارس الشحاذة ومشى بين النّاس أكثر من عشر سنوات حافي القدمين عاري البدن وغسل ثياب غيره وفلا لهما القمل وسكن في خيمة شعب فذاق شظف العيش ﴾(أبو راس الناصر، 1990: 05) ورغم كلّ هذه الظروف إلاّ أنّه تمكنّ من تجاوز واقعه الأمر الذي جعله يظهر في صورة الرجل القوي المتحدي للظروف المقاوم لها، ولعلّ ما توصلنا إليه يكاد يتّفق مع ما جاء به أحد المؤرّخين في وصفه للرحلة بقوله:﴿ كما هي صورة عن صاحبها وقد بدا فقيرا يعاني ماديا ، لكن ذو غنى روحي وفكري زاخر، حتى ليكاد ينسيه تماما غناه العقلي فقره المادي، وهي سمة من سمات العلماء الأوفياء المخلصين لأفكارهم وضمائرهم، المتفانين في خدمة الثقافة بالإمكانات المتاحة والجهد المستطاع، فيزهر ذلك ويثمر ويكون العطاء أعظم في محيط صحي، خال من مكائد ضعفاء النّفوس ومؤامراتهم﴾(بن قينة عمر، 1995: 110) .

كلّ هذه الصور وغيرها تشكّلت لدينا من خلال هذه الرحلة التي تعكس صورة صاحبها وزمانه في الآن ذاته لما حملته في طياتها من أحداث جعلتها تدخل في عداد مصادر التاريخ سواء من جانبه السياسي أو الاجتماعي والثقافي، وهي مادة تفيد المؤرخين والدّارسين وتفتح لهم الآفاق التي قد لا تيسرها لهم مصادر التاريخ.

الخاتمة:

وبهذا فقد استطاع الرحالة أبو راس بما يمتلكه من معرفة تاريخية أن يرسم لنا صورة جليّة عنه وعن واقعه في القرن الثامن عشر سواء على المستوى الاجتماعي أو على المستوى الثقافي والديني، الأمر الذي يجعل رحلته ذات أهمية لكونها شهادة حيّة عن عصر مؤلفها الأمر الذي ينفي المزاعم التي تقول بعدم وجود مصادر عربية تحكي عن الفترة العثمانية.

كما أنّ رحلته هذه لا تظهر فيها صورة الأنا الخاصة بالناصري فحسب وإنّما هي تمثّل صورة الأنا الجزائري أو الإنسان الجزائري في مقابل الآخر وهو ما يضفي عليها أهميّة بالغة ويفتح لنا مزيدا من الآفاق لدراستها .

قائمة المراجع:

ـ أنساعد،سميرة، (2009). الرّحلة إلى المشرق في الأدب الجزائري، دط. الجزائر: دار الهدى.

- الحفناوي، أبو القاسم محمّد،(1991). تعريف الخلف برجال السّلف، دط، الجزائر: موفم للنّشر

ـ ابن حنفية،عبد القادر، (2004). أبو راس الناصري المعسكري حياته وتصوفه، دط. الجزائر: مكتبة الرشاد للطباعة والنّشر والتوزيع.

ــ أبو راس،الناصر، (1990). فتح الإله ومنته في التحدث بفضل ربي ونعمته، دط. الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب.

ـ سعد الله،أبو القاسم، (1985). تاريخ الجزائر الثقافي من القرن العاشر إلى الرابع عشر الهجري، ط2. الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب.

ـ سعد الله،أبو القاسم، (2005). أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، ط4. بيروت: دار الغرب الإسلامي.

ـ شاوش،محمد، (2011). إرشاد الحائر إلى آثار أدباء الجزائر، دط. الجزائر: دار البصائر للنشر والتوزيع.

ـ بن قينة،عمر، (1995). الأدب الجزائري الحديث تأريخا وأنواعا وقضايا وأعلاما، دط. الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية.

– المستغانمي، عبد القادر بن عيسى، (1996). مستغانم وأحوازها عبر العصور ، ط1، الجزائر: المطبعة العلاوية.

الناصرية